الحرب الباردة والقنبلة الذرية

وصف أحد الكتاب السياسيين حالة الجفاء والتوتر القائمة الآن بين الدول الكبرى بأنها الحرب الباردة أو الجامدة ، التى لا تراق فيها الدماء ، ولا تقتتل الجيوش ، وإنما تصطدم فيها السياسات وتصطرع مصالح الشعوب ، ويضحى من أجلها بأنفس ما وصلت إليه جهود البشر فى الحرب الأخيرة من تعاون وسلام . ومن علامات هذه الحرب الجديدة ، أن الكتّاب والسياسيين الذين كانوا فى الماضى ينبذون اسم الحرب ، ويتحاشون ذكرها فى أحاديثهم أو بياناتهم ، قد أصبحوا الآن لايكاد يمر يوم دون أن تجرى فيه كلمة الحرب المشئومة على ألسنتهم وعلى أسنة أقلامهم ، لا فى خطبهم وصحفهم فحسب ، بل كذلك فى ساحة الهيئة الدولية وأمام الملأ من مندوبى الدول الذين اجتمعوا فى نيويورك لتأمين قضية السلام وتوطيد أركان التعاون بين الشعوب . فمندوب روسيا هناك لا يرى حرجاً فى أن يتهم حكومة الولايات المتحدة علناً بأنها حكومة استعمارية تدعو فى سياستها إلى الحرب ، وبأنها تجرى فى خططها بوحى من أصحاب رءوس الأموال الذين يفيدون عادة من الحروب . ثم ينحرف المندوب إلى بريطانيا فيخص مستر تشرشل بقارص اللوم والتقريع ، ويقول عنه : « إن تشرشل يحرض على شن حرب أخرى ضد روسيا وديمقراطيات أوربا الشرقية . . . وإنه لا يخجل من أن يهدد بعقد محالفة عسكرية بين أمريكا وبريطانيا لاشعال نار حرب جديدة » . وأخيراً يقول المندوب فى خطابه أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم :

« إن هؤلاء الدعاة الذين يستفيدون من الحرب يحاولون تخويف الشعوب بالأكاذيب الملفقة عن استعدادات يزعمون أن الاتحاد السوفيتى يقوم بها لمهاجمة أمريكا ، وهم يعلمون من غير شك أنهم كاذبون ، وأن الاتحاد

السوفيتى لايهدد أحداً بالاعتداء بأية صورة . » ويرد المندوب البريطانى على هذه الاتهامات فيقول : إن روسيا مازالت تؤمن بالنظرية التاريخية البالية نظرية السيطرة والسيادة المطلقة فى العالم ، وإنه إذا لم تكن روسيا مستعدة لقبول مبدأ المساواة التامة عن رضا واختيار ، فلن يكون لهيئة الأمم المتحدة معنى ، ويكون اجتماع مندوبى الدول فى جمعياتها ومجالسها ضرباً من العبث . ولا يكاد ينقضى أسبوع على هذا التراشق بالتهم بين مندوبى الدول الثلاث الكبرى حتى يظهر كتاب سياسى للوزير الأمريكى السابق مستر جيمس بيرنز ، وقد جعل عنوانه : « لنتكلم بصراحة »(١) وقد فند فيه سياسة روسيا ، وبين أنها تعمل جاهدة للهيمنة على أوربا ، لا فى شرقيها ووسطها فحسب ، بل فى غربيها أيضاً . ومما جاء فى كتابه خاصا بمشكلة ألمانيا : « إنه إذا تفاقم الخلاف بين الدول الغربية وبين اتحاد السوفيت بشأن مصير ألمانيا فمن واجب الدول الغربية أن تدعو سائر الدول إلى مؤتمر عام . وإذا أصرت روسيا على موقفها ورفضت سحب قواتها من المنطقة الألمانية التى تحتلها ، فما على الدول الغربية إلا أن تعقد مع ألمانيا معاهدة صلح على انفراد ، ثم يتعاون الجميع على طرد روسيا خارج ألمانيا بالقوة . » وكذلك لم يحاول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا أن يخفى قلقه حين قال فى خطبة حديثة له : إنه إذا استعصى الاتفاق بين الدول فى مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المزمع عقده فى ٢٥ نوفمبر ، فان الموقف بين الدول لا بد أن يتطور تطوراً بالغاً منتهى الخطورة .

ولم يقف اتهام الفريقين بعضهم بعضاً عند حد التراشق بالتهم والمهاترة فى الكتابة والخطابة ، بل يبدو أنهما قد وطنا النفس على اجتياز حدود الكلام والدخول إلى منطقة الأعمال ؛ فعقد مندوبو الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية مؤتمراً عاما فى فرسوفيا عاصمة بولنده حضره أيضاً مندوبون عن الحزبين الشيوعيين فى فرنسا وإيطاليا وقرروا فيه إنشاء مكتب دائم للاستعلامات الشيوعية يُعنى بتنظيم جهود الأحزاب الشيوعية فى سائر الدول وتنسيق أعمالها . وجعلوا مركزه فى بلغراد عاصمة يوغسلافيا ، ليكون المكتب على اتصال

---

(١) *Speaking Frankly*, by James Byrnes

وثيق بروسيا من جهة ، وقريباً من المنطقة الدولية فى تريسته من جهة أخرى . والناس يتكهنون لتريسته بأنها ستكون «دانزج» الجديدة التى تمهد للحرب العالمية الثالثة . ويعرف المكتب الجديد « بالكومنفورم » Cominform أى الاستعلامات الشيوعية ، تميزاً له عن «الكومنترن» Comintern أي الشيوعية الدولية التى ألغتها روسيا رسميا فى إبان الحرب الأخيرة فى مارس سنة ١٩٤٣ . ووجه الخطر من هذا المكتب أنه يجعل الأحزاب الشيوعية فى الدول المختلفة تابعة فى خططها وتوجيهاتها للهيئة المركزية وإرشاداتها ، وأن ولاء الشيوعيين سينحرف تبعاً لذلك إلى جانب المركز الرئيسى الدولى دون غيره من الهيئات الوطنية .

ومع أن أعضاء المكتب الجديد لا يزيدون على تسع دول فان إحياء حركة الشيوعية الدولية تحت العنوان الجديد من شأنه أن يثير مخاوف الدول الأخرى التى مازالت ترى فى المبادى الشيوعية خطراً يهدد كيانها لأنها تحض على العنف وعلى الثورة العالمية . ولقد خطب الرفيق مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الثورة البلشفية الكبرى فقال عن إنشاء « الكومنفورم » ما يأتى : «إن الحزب البلشفى السوفيتى ليرحب بانشاء هذا المكتب الذى ينظم حركة تبادل الآراء ووجهات النظر بين الأحزاب الشيوعية فى بعض الدول ، بقصد تمهيد السبيل لنمو هذه الحركة . و إن الحزب ليتمنى لهذا المكتب النجاح . إننا نعيش الآن فى عصر تؤدى جميع الطرق فيه إلى الشيوعية . » وقال مشيرا إلى مهمة الحركة الشيوعية العالمية « إن الشعوب التى أيقظها إدراكها لحقائق الأمور لترى فى نجاح الاتحاد السوفيتى عاملا يمكنها من أن تدنو من اليوم الذى سيتسنى لها فيه أن تتخلص من نير الاستعباد . »

وليس من شك فى ان مولوتوف إنما اراد بحملته على الاستعباد أن يقاوم الخطر الأمريكى الذى تعرضت له بعض دول أوربا منذ أعلن الرئيس ترومان فى مارس الماضى مبدأه الجديد الذى قضى به على سياسة الفرقة الامريكية القديمة التى انتهجتها الولايات المتحدة فى الماضى فنأت بسياستها عن جانب أوربا وانطوى اهتمامها على نفسها وعلى شؤون أمريكا بصفة خاصة . فجاء ترومان وأعلن أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدوله

ونوابها عزمه على التدخل لمساعدة اليونان وتركيا وتقديم قرض لهما بمبلغ أربعمائة مليون دولار ، وقال مخاطبا الكونجرس : إنه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها من الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . وقد ذكر الرئيس ترومان صراحة أنه إنما قصد بتدخله صدّ عدوان روسيا عن تركيا واليونان وهما الدولتان الوحيدتان اللتان وقفتا حجر عثرة فى طريق نهضة الحكومات الشيوعية فى شرق أوربا . لذلك وطنت روسيا عزمها على الكفاح والتحدى والمقاومة .

وأخذت توطد أركان الأحزاب الشيوعية فى البلاد الداخلة فى دائرة نفوذها ، فضمت بلاد المجر إلى حظيرة البلاد التى تعتنق الشيوعية ، واعتقلت زعيم الحزب المعارض للشيوعيين فى رومانيا بتهمة التآمر على خيانة الدولة . وحوكم لهذا السبب عينه زعيم المعارضة فى بلغاريا ونفذ فيه حكم الاعدام رغم اعتراض الحكومتين البريطانية والامريكية . ولا تزال حرب العصابات مشتعلة فى شمال اليونان يلهبها الشيوعيون المتاخمون للبلاد . وفى منطقة تريسته الدولية أبت روسيا أن توافق على تعيين حاكم عام للمنطقة ما لم يكن الحاكم من مرشحيها . وأخيراً قام الشيوعيون فى فرنسا وايطاليا باضرابات وقلاقل كادت تفضى إلى تفوقهم السياسى لولا تضافر العناصر المناوئة للشيوعية ضدهم .

ورأت حكومة الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا أن الدرع الوحيدة التى تستطيع الحكومات الغربية أن تتقى بها ضربات الشيوعيين أن تنهض كل منها بانعاش الحالة الاقتصادية فى بلادها ، فتعاون الأهلين على استعادة انتاجهم الزراعى والصناعى ، حتى تنشط حركة التبادل بين الشعوب وتعود البلاد سيرتها الأولى . ولما كانت الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تستطيع إقالة أوربا من عثرتها والأخذ بيدها فى محنتها الحالية الحاضرة ، بدا لمستر مارشال

الوزير الامريكى الجديد ان يغتنم الفرصة فيخفف من وقع السياسة الجديدة التى أعلنها مستر ترومان وخص بها اليونان وتركيا ، فصرح فى يونيه الماضى بأن حكومة الولايات المتحدة رغبة منها فى إنعاش أوربا اقتصاديا مستعدة لمعاونتها ماليا إذا اتفقت الدول الراغبة فى هذا التعاون على إنشاء برنامج مشترك للتعمير والانتاج فى بلادها . ولاحت حينذاك بارقة أمل فى امكان توحيد أوربا اقتصاديا وإن عزّ توحيدها سياسيا . وقد ساعد على تعزيز هذا الأمل أن وزير خارجية اتحاد السوفيت قد اشترك بنفسه مع وزيرى انجلترا وفرنسا فى اجتماع عقد فى باريس فى الصيف الماضى لبحث هذا المشروع الخطير الذى عرف « بمشروع مارشال » . ولكن وزراء الدول الثلاث ما كادوا يجتمعون حتى بدا اختلافهم من جديد ، ورأت روسيا أن تدخل أمريكا الاقتصادى ما هو فى حقيقة الأمر إلا مقدمة لتدخلها السياسى فى شؤون دول أوربا الصغرى . وعلى ذلك غادر الوزير السوفيتى باريس وقاطعت روسيا المؤتمر الذى دعت إليه انجلترا وفرنسا وقاطعته معها دول شرق أوربا . وأخيرا اجتمع مندوبو ست عشرة دولة لاعداد البرنامج الاقتصادى الذى طلبته حكومة الولايات المتحدة . وقد تقدمت الدول ببرنامجها فى الشهر الماضى . ولكن الأزمة المالية الخانقة فى بلاد كفرنسا وإيطاليا وانمسا جعلت أمريكا تعجل بانقاذ الحالة . وتقدم رئيس الولايات المتحدة أخيراً يهيب بأعضاء الكونجرس الأمريكى أن يلبوا حاجة أوربا الملحة للمساعدة فيعقدوا اجتماعاً غير عادى يقررون فيه إسعاف أوربا بمبلغ بدائى ، وذلك إلى أن يتيسر للمجلس دراسة مشروع مارشال برمته على مهل . وبهذه الطريقة تقوى حكومات أوربا على إنقاذ سعوبها من خطر المجاعة والتعطل من جهة وتستطيع الولايات المتحدة التغلب على حركة التضخم المالى وارتفاع أسعار الحاجيات فيها من جهة أخرى .

وعلى ذلك ظهرت معالم الكتلتين الشرقية والغربية واضحة للعيان ؛ فان ست عشرة دولة (١) فى أوربا قد آثرت أن تلبى دعوة أمريكا وتشترك معاً

(١) هذه الدول هى : بريطانيا ـ فرنسا ـ هولندة ـ بلجيكا ـ لكسمبورج ـ النمسا ـ الدنمرقة ـ النرويج ـ السويد ـ إرلندة ـ اليونان ـ إيطاليا ـ البرتغال ـ سويسرا ـ إيسلنده ـ تركيا

برياسة بريطانيا فى إعداد برنامج مشترك للانشاء والتعمير . وقد شملت الكتلة الغربية عدا الدول المطلة على المحيط الأطلنطى تركيا واليونان و إيطاليا، ولم تنضم أسبانيا إليها للحجر السياسى الذى فرضته هيئة الأمم المتحدة فى العام الماضى وأقصت به أسبانيا عن المؤتمرات الدولية . ولأجل أن يكون التوازن ملحوظا بين الكتلتين رأى اتحاد السوفيت أن يشعر دول الكتلة الشرقية بأن مصالحها المشتركة هى أيضاً موضوع الدرس والاهتمام ، فأنشأت مكتب الكومنفورم الذى سبقت الاشارة إليه [1] .

وقد بدا الانقسام واضحا بين الكتلتين فى المسائل والقضايا التى عرضت أمام هيئة الأمم المتحدة سواء أمام مجلس الأمن أو فى جمعيتها العمومية . وهنا يستطيع الباحث أن يستخلص من أسباب النزاع بين الفريقين مسألتين هما — إن صح اعتقادنا — مصدر الداء وأصل الخلاف : القنبلة الذرية وحق الفيتو . وسنتناول هنا مسألة الطاقة الذرية التى فوجئت بها روسيا والعالم كله عندما ألقت القوات الأمريكية فى الشرق الأقصى القنبلة الأولى على هيروشيما فى أغسطس سنة ١٩٤٥ أى بعد دخول روسيا الحرب ضد اليابان بأسابيع قليلة . وكأنما الضباب المسمم الذى خلفته القنبلة واحتوى على هيروشيما المنكودة قد غطى أيضاً بسمومه جو العلاقات السياسية بين روسيا وحلفائها انسكسونيين ، فأوجد بينهما منذ إلقاء القنبلة هوة ما برحت تتسع وتغور نحو القاع ، حتى لمست الهوة الصخر الصلد الذى لا يلين ولا ينبجس منه الماء ! وليس أدل على عظم هذه الهوة وسعتها من مظاهر الجفاء والتشكك وفقدان الثقة التى سادت بين الحلفاء منذ اجتماع الزعماء فى بوتسدام فى صيف سنة ١٩٤٥ إلى الآن . ولو أن الولايات المتحدة و بريطانيا وكندا وهم أصحاب سر القنبلة قد أبرءوا ضمائرهم ووضعوا سر القنبلة بين أيدى هيئة الأمم المتحدة من أول الأمر لأمكن رأب الصدع وتفادى الخطر فى صفوف الحلفاء . ولكن أناساً ظهروا فى أمريكا وأوربا ، ومنهم كثير من رجالات الحرب ، نادوا بالاحتفاظ بالسر الرهيب حتى يمكن مفاجأة روسيا به إذا

(١) ويتألف المكتب المذكور من الدول الآتية : بلغاريا — تشيكوسلوفاكيا — المجر — بولندة — رومانيا — يوغسلافيا — اتحاد السوفيت . يضاف إليها الحزبان الشيوعيان فى فرنسا و إيطاليا .

اقتضت الحال قبل أن تصل إلى سر صنعها . وكان العلماء قد أفتوا بأن كشف الطاقة الذرية لن يبقى طويلا سرا مجهولا ، ولكن الاهتداء إلى صنع القنبلة و إنتاجها قد يستغرق سنين طويلة . وعلى ذلك سرعان ما ظهرت محاولات ومؤامرات أراد بها مدبروها من السوفيت أو غيرهم الوقوف على سر القنبلة فى كندا . فدعا رئيس الولايات المتحدة رؤساء الحكومات الثلاث إلى اجتماع عقد فى واشنجتون وقرروا استعدادهم لإشراك الدول الأخرى معهم فى سر القنبلة متى وافقت هيئة الأمم المتحدة على اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع استخدام الطاقة الذرية فى أغراض التدمير والعدوان . وتألفت على أثر ذلك لجنة مثلت فيها الدول التى يتكون منها مجلس الأمن ومعهم مندوب من حكومة كندا وهى إحدى الدول الثلاث صاحبات السر . وعرفت هذه اللجنة باسم مندوب أمريكا برنارد باروخ Bernard Baruch وهو من سياسى أمريكا القدماء الكفاءة . وقد عقدت اللجنة جلساتها فى نيويورك فى ربيع سنة ١٩٤٦ وقدمت تقريرها وفيه اقترحت تأليف هيئة دولية تعمل لاحتكار جميع المواد الخام التى تدخل فى صنع القنبلة حيثما وجدت ، كما تحتكر أسرار صنعها . واقترحت اللجنة أن تتعهد الدول بالامتناع عن إجراء البحوث الخاصة بالطاقة الذرية إلا باذن من الهيئة ، على أن يكون للهيئة حق التفتيش فى البلاد المختلفة وتوقيع العقوبات الرادعة على الدولة التى تحدثها نفسها بمخالفة هذه التعهدات . وذكرت اللجنة أنه متى تم تكوين الهيئة المذكورة فان واجب حكومة الولايات المتحدة أن تُعدم القنابل الذرية المدخرة لديها وتقف إنتاج القنبلة بعد ذلك بتاتاً . ثم أضافت اللجنة شرطاً أساسيا لقبول مقترحاتها ، وهو أن تنزل الدول التى لها حق الفيتو فى مجلس الأمن عن حقها فى تطبيقه فى حالة اقتراح العقوبات التى توقع عند مخالفة التعهدات المذكورة ، حتى لا تفلت دولة كبيرة أيا كانت من العقوبات متى نكثت عهدها وأخلّت بشروط عدم إساءة استخدام الذرة . ومع أن جميع الدول التى مثلت فى اللجنة المذكورة قد وافقت على هذه الشروط فان حكومة اتحاد السوفيت قد عارضت بشدة فى حق التفتيش الذى سيخول للهيئة ، وفى نزولها عن حق الفيتو . واقتصرت روسيا فى حماستها ضد هذا السلاح المدمر على المطالبة بعقد معاهدة دولية يحظر فيها استخدام القنبلة الذرية قانوناً . وما فتئت روسيا

إلى اليوم تتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بأنهما تهددان العالم بهذا السر ، وتعملان لمناهضة حركة نزع السلاح أو تخفيفه ، باحتفاظهما بسر القنبلة الذرية . ولكن الحكومتين تصران على ضرورة قبول الشروط التى وضعتها اللجنة قبل إفشاء السر ، وتقولان إنه ما دعا روسيا إلى معارضة حق التفتيش والتشبث بحق الفيتو إلا إصرارها على حفظ أسرارها الحربية ، والتمسك باقامة السد الحديدى بينها وبين دول العالم . وإنه يكفى برهاناً على تجرد الدولتين من أية مصلحة ذاتية لهما أنهما قبلتا إعدام القنابل الذرية الموجودة لديهما ، والنزول طوعاً عن حقهما فى استخدام الفيتو فيما يخص العقوبات المتعلقة بمخالفة شروط الذرة .

وقد سخر الرفيق مولوتوف أخيراً من موقف الدولتين إزاء القنبلة الذرية ، فقال فى خطبته الأخيرة بمناسبة الذكرى الثلاثينية للثورة الروسية :« ... وخليق بالذكر هنا أن نقرر أن الاستعماريين فى أمريكا لا يثقون بطاقة بلادهم الداخلية ، ولهذا تراهم يعتمدون كل الاعتماد على القنبلة الذرية ، مع أن هذا السر قد أضحى مفضوحاً منذ زمن طويل . ولا يخفى أن الاستعماريين يحتاجون إلى هذه الثقة بالقنبلة الذرية التى هى سلاح للعدوان لا للدفاع كما هو معروف . » فهذا كلام له خطره ، معناه أن روسيا تتسلح بالقنبلة كما تتسلح أمريكا وبريطانيا . ومما لاشك فيه أن القنبلة الذرية سواء أكانت سلاحاً للهجوم أم للدفاع فهى قبل كل شئ أفتك سلاح اخترعه الانسان ضد المدنية والانسانية جمعاء . وإذا كان بعض الناس قد نقموا على الولايات المتحدة فى نهاية الحرب أنها استخدمت قنبلتين اثنتين لضرب اليابان وحملها على التسليم فى الحرب الأخيرة ، فهل يجوز أن تختلف الدول الكبرى فى وقت السلم وأمام الهيئة المنوطة بصيانة السلام بين شعوب العالم على مراقبة الطاقة الذرية وتأمين الانسانية ضد أخطارها ؟

إن الخلاف بين دول الكتلتين خطير ومتعدد الجوانب . ولكن أشد مظاهر هذا الخلاف هو ترك موضوع الطاقة الذرية دون رقابة دولية وإهدار هذ السر وجعله خطراً مشاعاً بين الناس ، قد يكتشفه الروس غداً والألمان بعد غد ، ثم يليهم الطليان واليابانيون والهنود واليهود من بعدهم ، إلى آخر القائمة . وهكذا لا يقتصر الخطر من الكلام عن الحرب على اصطدام قوى

بين الكتلتين أو قيام حرب عالمية ثالثة ، بل نكاد نوقن أن العالم سيستحيل بعد ذلك إلى حقول تجريبية هائلة تستنبت فيها الشعوب القنبلةالذرية ، كما استنبت كدموس فى الأسطورة الاغريقية القديمة أسنان التنين التى بذرها فى مدينة طيبه الاغريقية فلم تلبث الأسنان أن أثمرت وأخرجت سلالة من الوحوش الكاسرة كان كدموس نفسه مؤسس طيبه أول من تعرض لآفاتها و بطشها .

محمد رفعت